9

التنوير

كان القرن الثامن عشر، بالنسبة لكثيرين من النخب المتعلمة، مدعاة للبهجة والانتشاء. كانت حرب الثلاثين عاما قد أصبحت ذكرى قصيّة ومُرحّبا بها فى آن، لأن الناس كانوا عازمين على وجوب عدم وقوع أوروبا فريسة لمثل ذلك التعصب وضيق الأفق مرة أخرى. ولما كان لُوكْ قد رأى أن العلماء قد أوضحوا أن العالم الطبيعى يحوى دلالات كافية على وجود الخالق، من ثم، لم يعد ثمة حاجة لأن تَفْرض الكنائس تعليماتها على أتباعها. فلأول مرة فى التاريخ كان للنساء والرجال حرية اكتشاف الحقيقة بأنفسهم. ذهب جيل جديد من العلماء إلى توكيد عقيدة نيوتن عن وجود خطة عظمى مذهلة للكون. فتح اختراع العدسات المكبِّرة عالما جديدا آخر أتى بأدلة جديدة على التخطيطات والتصميمات الإلهية. كان المجْهرى الهولندى أنطونيو فان ليوفنهوك (١٦٣٢- ١٦٧٣) قد تفحص لأول مرة الحيّ المنوى الجرثومى، الخيوط الدقيقة للعضلات، والبنية المعقدة للعاج والشَّعْر.

كانت كل تلك الأعاجيب تشير إلى ذكاء أعظم، يمكن الآن اكتشافه من خلال الإنجازات الاستثنائية للعقل البشرى الذى يعمل دونما مساعدة من أحد.

انتشر العلم الجديد بسرعة من أوربا إلى المستعمرات الأمريكية، حيث اضطلع الكاتب الغزير ورجل الدين كوتُن ميثر (١٦٦٣- ١٧٢٨) والذى كان والده إنكريز (١٦٣٩- ١٧٢٣) صديقا لروبرت بويل، اضطلع بأبحاثه المجهرية الخاصة وكان أول من أجرى التجارب على تهجين النباتات. أبقى، بحماس، على اطلاعه على العلم الأوربى، وفى عام ١٧١٤ تم قبوله عضوا بالجمعية الملكية البريطانية. فى عام ١٧٢١، نشر كتاب «الفيلسوف المسيحى» الذى كان أول كتاب عن العلوم يتاح للقارئ العام الأمريكى. من الأمور الدالة، أنه كان أيضا كتابا للتبريرات الدينية. أصر ميثر على أن العلم «حافز رائع للدين»؛ بل

إنه يمكن النظر إلى الكون بأكمله على أنه معبد «أقامه وجهّزه ذلك المهندس القادر الأعظم». رأى أن هذه العقيدة «الفلسفية» التى يمكن أن يقبلها المسيحيون والمسلمون المشرقيون معا، باستطاعتها أن تتسامى على النزاعات العقائدية القاتلة بين الطوائف، وترمم الانقسامات الطبقية:

«انظروا! دين ستجدونه دونما جدل خلافى، دين سيتحدى جميع الاعتبارات ومصادر القلق بين الناس من أعلى وأيضا من أسفل؛ سأعود إلى المصطلح، دين فلسفى؛ ومع ذلك، يا له من دين إنجيلى تبشيرى!».

رآه بالفعل إعلانا «للبشارة». لقد كشفت قوانين نيوتن عن الخطة العظيمة للكون التى تشير مباشرة إلى الله الخالق؛ ومن خلال هذا الدين «فقد طُورد الإلحاد وتم تعقبه إلى خارج العالم إلى الأبد».

بيد أن ميثر قد برهن على مدى قدرة المعتقدات القديمة أن تتواجد، بسهولة، جنبا إلى جنب مع المعتقدات الجديدة. أثناء ثمانينيات القرن السابع عشر، حذر أعضاء إبراشيته من أن الشيطان كان ينظر إلى نيو إنجلاند على أنها منطقته الخاصة، وأنه قد خاض معركة مريرة ضد المستعمرين المستوطنين (الأوربيين). رأى أن الشيطان نفسه كان المسئول عن الحروب التى شنها الهنود، وعن وباء الجدرى، وعن تراجع التدين الذى تسبب فى تلك الدرجة من التوتر بين البيوراتينيين. لعب كتابه «أمثلة لا تُنسى من العناية الإلهية المتعلقة بالسحر والمس» (١٦٨٩) دوراً كبيرا فى تأجيج وطيس المخاوف التى أدت إلى محاكمات الساحرات بمدينة سالم (١٦٩٢) والتى كان له دور أساسى فيها. لم يتمكن إيمانه بالعقلانية العلمية من تهدئة شياطينه الداخلية أو قناعته بتربص الأرواح الشريرة فى كل مكان فى وضع استعداد لتقويض المستعمرة المسيحية.

بيد أنه، وبالرغم من انفجار اللاعقلانية بمدينة سالم، تمكن الأمريكيون المثقفون من المشاركة فى الحركة الفلسفية التى تعرف بالتنوير. كانت مجموعة نخبوية من المثقفين بأوروبا والمستعمرات الأمريكية على قناعة بأن البشرية كانت على وشك أن تُخلّف الخزعبلات وراءها، وأنها كانت على حافة عصر جديد مجيد. فقد أتاح العلم للناس قدرا من التحكم فى الطبيعة أعظم مما تحقق لهم فى أى وقت مضى؛ طالت أعمارهم الآن وكانوا يشعرون بمزيد من الثقة فى المستقبل. كان بعض الأوروبيين قد بدأوا بالفعل يُؤمِّنون على حياتهم. وأصبح الأثرياء على استعداد لإعادة استثمار رأس المال بأسلوب منهجى على أساس الابتكار المستمر، وفى توقع راسخ منهم بأن التجارة ستستمر فى التحسن.

ولكى يتماشى مع تلك التطورات المثيرة، كان على الدين أن يتغير، من ثم،

طور فلاسفة التنوير نوعا جديدا من التأليه التوحيدى theism مؤسسا كليًا على العلم النيوتونى، وأسموه التأليه الطبيعى Deism (الحلول الإلهى فى الطبيعة). ليس صحيحا أن التأليه الطبيعى كان محطة فى منتصف الطريق إلى الإنكار التام لله. كان المؤمنون بتلك العقيدة متحمسين لله، بل إنهم كانوا مهووسين بالدين. ومثل نيوتن، اعتقدوا أنهم قد اكتشفوا عقيدة بدئية تكمن أسفل السرد الإنجيلى القديم. نشروا دينهم العقلانى بحماس شبه تبشيرى وبشروا بالخلاص من خلال المعرفة والتعليم. أضحى الجهل والخزعبلات هما الخطيئة الأصلية الجديدة. سعى رجُلاَ اللاهوت بالجزر البريطانية ماثيو تيندال (١٦٥٥- ١٧٣٣) وچون تولاند (١٦٧٠- ١٧٥٢)، والفيلسوف الفرنسى ڤولتير (١٦٩٤- ١٧٧٨)، والعالم، ورجل الدولة والفيلسوف بنجامين فرانكلين (١٧٠٦- ١٧٩٠)، ورجل الدولة توماس چفرسون (١٧٤٣- ١٨٢٠) بأمريكا، سعوا جميعهم إلى الإتيان بالعقيدة تحت سيطرة العقل. أراد فلاسفة التنوير أن يتمكن كل فرد من فهم الحقائق التى كشف العلم النقاب عنها وأن يتعلم الجميع التفكير العقلانى والتمييز الصائب. كانوا، وقد ألهمتهم رؤية نيوتن لكونٍ تحكمه قوانين ثابتة غير قابلة للتغير، يستاءون لفكرة وجود إله يتدخل فى الطبيعة بأسلوب نزواتى، يتسبب فى المعجزات ويكشف عن «أسرار» خارج متناول قدراتنا على التفكير المنطقى.

عرَّف ڤولتير دين التأليه الطبيعى الجديد Deism فى المعجم الفلسفى (١٧٦٤) الذى وضعه. اعتقد، مثل نيوتن، أن الدين الحق ينبغى أن يكون «سهلاً»، يمكن تبين حقائقه بجلاء، وفوق كل شىء، ينبغى أن يكون متسامحا:

«ألن يكون هو هذا (الدين) الذى يُعلِّم كثيرا من السلوك الأخلاقى، والقليل القليل من التعليمات الدوجماتية؟ ذلك الذى ينزع لأن يجعل الناس عادلين

دونما عبث أو سخف؟ ذاك الذى لا يأمر المرء بالاعتقاد فى أشياء مستحيلة، متناقضة، تُلحق الأذى بالإله والضرر والهلاك بالبشر، ذاك الذى لا يجرؤ على تهديد أى شخص ذى حكمة فطرية بالعذاب الأبدى؟ أليس هو ذاك الذى لا يدعم عقيدته بواسطة القتلة الذين ينفذون أحكاماً بالإعدام، والذى لا يغرق الأرض بالدماء بناء على سفسطة غير مفهومة؟ ذاك الذى يعلم عبادة رب واحد فقط، والعدالة والتسامح والإنسانية؟».

كان يسِم هذا الدين الأوروبى الجديد، وبعد الندبات التى خلفتها المشاحنات اللاهوتية، وعنف حركة الإصلاح الدينى، وحرب الثلاثين عاما، كان يسمه معاداة للإكليروس (طبقة رجال الدين) لكنه لم يكن مناوئا بأية حال للدين ذاته. كان أتباع مذهب التاليه الطبيعى بحاجة إلى الله. ووفقا لتعليق ڤولتير الشهير، لو أن الله كان غير موجود، لكان من الضرورى اختراعه.

كان التنوير ذروة رؤية كان قد ظل الإعداد لها قائماً منذ وقت طويل. تنامت تلك الرؤية على أساس من علم جاليليو الآلى، مسعى ديكارت إلى يقين مستقل بذاته، وقوانين نيوتن الكونية، وبمطلع القرن الثامن عشر، اعتقد الفلاسفة أنهم قد اكتسبوا أسلوبا موحّدا لتقييم الحقيقة بكاملها. فالعقل هو السبيل الوحيد للوصول إلى الحقيقة. كان الفلاسفة على قناعة بأنه بالإمكان تفسير الدين، المجتمع، التاريخ وأنشطة العقل الإنسانى، كلها من خلال العمليات النظامية الطبيعية التى اكتشفها العلم، هذا، على الرغم من أن أيديولوجيتهم العقلانية كانت تعتمد بالكامل على وجود الله. كان الإلحاد، كما نعرفه اليوم، مازال غير متصور، اعتبره ڤولتير «شرا شائها غير طبيعى»، لكنه كان واثقا من أنه، ونظرا لأن العلماء قد اكتشفوا الأدلة القاطعة على وجود الله، فلم يعد «سوى عدد من الملحدين اليوم أقل من أى وقت مضى». أما

چفرسون، فقد رأى أنه من المحال أن يتفحص أى عقل ذى بنية عادية الخطة المُتجلية فى كل ذرة بالكون ويُنكر ضرورة وجود قوة بصيرة رقيبة. وقال كوتن ميثر إنه «إذا كان الناس يُبدون كل هذا الإعجاب بالفلاسفة لاكتشافهم جزءا صغيرا من الحكمة التى صنعت كل شىء، فلابد أن يكون أولاء الذين لا يُعجبون بتلك الحكمة ذاتها مصابين بالعماء التام». رأوا جميعا أنه ليس بإمكان العلم تفسير استنتاجاته بدون الله؛ فالله ضرورة علمية بمثل ما هو ضرورة لاهوتية. بدا عدم الإيمان بالله ضلالا وانحرافا يماثل رفض الاعتقاد فى وجود الجاذبية. وكان التخلى عن الله يعنى نبذ التفسير العلمى الوحيد المُقنع للعالم.

كان هذا التركيز على البرهان فى سبيله إلى تغيير مفهوم العقيدة تدريجيا. كان چوناثان إدواردز (١٧٠٣– ١٧٥٨) رجل اللاهوت الكالڤينى من نيوا إنجلاند، على إلمام تام بالعلم النيوتونى، وكان قد ابتعد جذريا عن مفهوم الرب الذى يتدخل فى شئون الأفراد بدرجة أنكر معها جدوى التوسل إليه من خلال الصلاة. بيد أنه استمر فى الدفاع عن النظرة القديمة إلى العقيدة التى أصر على أنها تقتضى ما هو أكثر كثيراً من مجرد «الجزم بالشىء من خلال البرهان». رأى أن الإيمان لا يقتصر على كونه شأن موازنة بين القرائن والبراهين: بل يقتضى «تقديراً وحُبًا» لحقائق الدين بالإضافة إلى الانصياع العقلى. لا يمكن أن تكون ثمة عقيدة صحيحة إلا إذا كان الفرد مرتبطا أخلاقيا وعاطفيا بالمسعى الدينى. بيد أنه كان ثمة آخرون لم يوافقوه الرأى. عرّف چفرسون العقيدة بأنها «موافقة العقل على فرضية مدركة بالعقل فقط». وحذر چوناثان مايهيو راعى كنيسة وست ببوسطون بين عامى ١٧٤٧ و١٧٦٦، حذر رعاياه قائلاً إن عليهم تأجيل اعتقادهم فى الله أو عدم

اعتقادهم فيه إلى أن «يتفحصوا الأمر بموضوعية ويصبح بإمكانهم رؤية الأدلة المؤيدة لهذا أو ذاك».

بيد أن مايهيو، مثل ميثر، لم يكن متسقا دائما. كان يلقى وعظات عن عذاب الجحيم وعن أهمية العلاقة الحميمة الشخصية مع الله الذى يستجيب لدعاء الناس ويتدخل فى حياتهم. كان هذا التآليه الطبيعى (Deism) مع إضافات من التفكير الأسطورى التقليدية نمطيا بأكثر مما كانته العقيدة العقلانية المتزمتة لأشخاص راديكاليين من أمثال تولاند. فقط القلة هم من تمكنوا من الإبقاء على تلك العقيدة بأسلوب متسق تماما. أبقى غالبية الناس على المعتقدات المسيحية التقليدية إلا أنهم بذلوا جهدهم من أجل تنقيتها من «الأسرار والغموض». كان ثمة لاهوت على قدر من التناقض فى سبيله للتطور أثناء القرن الثامن عشر. على مستوى ما فوق الطبيعة، ظل الله أباً محبا مبهما، نشطا فى حياة عباده. لكنه أُجبر على التنحى خارج العالم الطبيعى: فقد خلقه وحافظ عليه، وأرسى قوانينه، ولكن بعد ذلك، كانت الميكانيزم تعمل من تلقاء نفسها ولم يكن ثمة تدخلات أخرى لله. فى الماضى، كان البرهمن متطابقا مع الذات الخالدة «atman» لكل كائن؛ وكان العقل الأسمى هو أقصى ما يتطلع إليه العقل البشرى. لم يكن عالم «الطبيعة» وما «فوق الطبيعة» متمايزين فى العقائد الباطنية وعقائد الأسرار، أما الآن فقد بدأ يبدوان متعارضين. كان الفلاسفة يكتشفون مزيدا من القوانين الطبيعية التى تتحكم فى حياة الإنسان دونما أية إحالة إلى الله. طرح آدم سميث (١٧٢٣-١٧٩٠) قوانين الاقتصاد التى كانت تحدد ثروة الأمم، واعتبر ڤولتير السلوك الأخلاقى تطورا اجتماعيا محضا، وتعاطى تاريخ إدوارد جيبون (١٧٣٧-١٧٩٤) العلمى فقط مع المسببات الطبيعية. كان الاستقطاب بين الطبيعى وما

فوق الطبيعى واحدا فقط من الثنائيات المتداولة العقل / المادة، الكنيسة / الدولة، العقل/ العاطفة – والتى سيتسم بها الوعى الحديث فيما كان يناضل من أجل الإلمام بتناقضات الواقع.

شمل التفكير التنويرى عددا قليلا نسبيا من الناس. لم يكن الجميع مقتنعين بالدين العلمى الجديد. ظلت الأيديولوجيا المستقلة لطوائف اللفلرز Levellers، والكويكرز Quakers والديجرز Diggers ذات البعد الفكرى الاجتماعى موجودة فى أوساط الطبقات الدنيا الإنجليزية المتعلمة كجزء من المعارضة المبدئية للمؤسسة. رأوا أن الفرضية العلمية القائلة بأن المادة خاملة وسلبية، ولا يمكن إطلاق حركتها سوى من خلال قُوة عليا، رأوها مرتبطة بالسياسات التى كانت تسعى لحرمان «الفئات الأدنى» من الفعل الذاتى المستقل. كان المدانون المتعلمون ممن صدرت ضدهم أحكام لتمرّدهم على إنجلترا الصناعية ورُحِّلوا إلى أستراليا حيث استوطنوها، قد اصطحبوا معهم إلى هناك ذلك المثال للخير العام Commonwealth الذى ناضلوا من أجله، وأسموا أنفسهم «الحفارين Diggers». كان أيضا ثمة قدر كبير من المعارضة للعلم النيوتونى بين المحافظين، أو جناح الأرياف من الكنيسة الأنجليكانية، معارضة قد تكون أكثر انتشاراً مما يعتقده المؤرخون. كان لچون هتشينسون (١٦٧٤– ١٧٣٧) – المعارض الرئيسى لذلك العلم – أتباع كثيرون. أما الطبيب البارز چورچ تشين، (١٦٧١– ١٧٤٣) والذى كان فى شبابه من أتباع نيوتن المتحمسين، فقد تبددت أوهامه فيما بعد حول الأنجليكانية الليبرالية والعلم الجديد بتأكيدهما على الاستقراء المنطقى والحسابات. أصبح ميثوديا منشقا ومعاديا للمؤسسة. كما اشتكى چورچ هورن (١٧٣٠– ١٧٩٢) أسقف نوريتش فى مذكراته الخاصة من أن أتباع

هتشينسون كانوا محرومين من الترقيات، وأن رجال الدين الليبراليين قد اخترعوا دينا طبيعيا هو صورة مزيفة للمسيحية الحقة، وأن ألوهية الطبيعة (الحلولية) قد «أعتمت الشمس». رأى أنه ليس بوسع الرياضيات أن توفر اليقين الذى توفره الحقيقة المنزلة، وأن الدين الطبيعى كان مجرد خدعة لإخضاع الناس. فقد جعل «جدوى المسيحية الوحيدة هى فرض النظام على المجتمعات، ويرى أتباع ذلك الدين أن الأفضل عدم وجود مسيح بإطلاقه على أن يؤدى وجوده إلى إحداث القلقلة فى المجتمعات».

من المؤسف، أن كثيرين رأوا أن الأيديولوجيا النيوتينية مرتبطة بأسلوب لا ينفصم مع نظام الحكم القامع. وكأنما فى رد فعل هذه العقيدة العقلانية، ازدهرت فى «عصر العقل» العديد من الحركات التقوية (الصوفية). أصر القائد الدينى الألمانى نيكولاس لادفيج فون زينزردورف (١٧٠٠- ١٧٦٠) على أن العقيدة «ليست فى الأفكار، ولا فى الرأس، بل فى القلب». رأى أن الله ليس حقيقة موضوعية يمكن إثباتها منطقيا، بل «حضورا فى الروح». رأى أن التعاليم التقليدية ليست حقائق مفاهيمية محضة؛ وكان لابد لتلك التعاليم أن تتحول إلى جسد هامد إذا لم يتم التعبير عنها عمليا فى الحياة اليومية. قال إنه على الرغم من أن الأكاديميين يُروّجون عن أنفسهم بالثرثرة حول أسرار الثالوث المقدس، إلا أن أهمية هذا المعتقد تكمن فى التدريبات الروحية؛ كما أن التجسد لم يكن واقعة تاريخية حدثت فى الماضى البعيد، بل إنه كان تعبيرا عن سرِّ الميلاد الجديد فى الفرد ذاته.

لم يكن الكهنة الذين تخيروا «دين القلب» فى ثورة على العلم؛ بل إنهم ببساطة رفضوا اختزال العقيدة إلى مجرد قناعة فكرية. كان چون وزلى (١٧٠٣- ١٧٩١) قد أسرته حركة التنوير وأراد تطبيق «أسلوب» علمى

ومنهجى على الروحانية: كان أتباعه الميثوديون (من لفظ Method أى أسلوب) يتبعون نظاما صارما من الصلوات، ودراسة الكتاب المقدس والصوم والأعمال الصالحة. لكنه أصر على أن الدين ليس تعليمات فى الرأس بل نورا فى القلب. أوضح ذلك بقوله: «لا يركز ديننا بشكل أساسى على أية آراء، صائبة كانت أم خاطئة. فى أفضل الأحوال، فإن الأرثوذكسية أو ما هو محل إجماع كرأى صائب لا يتعدى كونه جزءا ضئيلاً جدا من الدين، هذا إذا سُمِح له أن يكون جزءا منه بإطلاقه». وإذا أصبحت الأدلة العقلانية «معوقة غير سلسة» فربما كان هذا نعمة مَخْفية، لأن الناس سيجبرون على «النظر داخل أنفسهم» وينتبهون «إلى هذا الضوء نفسه ويرعونه». كانت التوجهات التقوية تشارك التنوير فى مبادئ كثيرة: كانت لا تثق فى السلطة الخارجية، وصنفت نفسها مع المحدثين ضد القدماء، وأكدت على التحرر، وتحمست لإمكانية التقدم. لكنها رفضت التخلى عن نماذج التدين القديمة لصالح عقيدة دينية معقلنة مُعصرنة.

لكن يمكن لـ «دين القلب» فى غياب التنظيم والتحكم أن يتدهور ويصبح جيشانا عاطفيا بل حتى هستيريا. وقد رأينا كيف أن جوهانس إكهارت مؤلف «السِّحاب» ودنيس الكارثوسى قد تملكهما القلق من مظاهر التدين التى تخلط ما بين الحالات العاطفية والحضور الإلهى. كان بالإمكان أن يعنى نزوع التنوير إلى إحداث استقطاب بين العقل والقلب أن تتدهور العقيدة غير القادرة على التقييم الذاتى الذكى لتصبح انغماسا عاطفيا مفرطا. أصبح هذا واضحا أثناء الإحياء الدينى الذى عُرِف باسم «اليقظة العظمى الأولى» والذى اندلع فى مستعمرة كونكتيكت الأمريكية عام ١٧٣٤. أغرق الموت الفجائى لاثنين من الشباب فى نورثامبتون المدينة فى نوبة هوس دينى انتشرت كالوباء حتى

ماساتشوستس ولونج أيلاند. وفى غضون ستة أشهر كان ثلاثمائة شخص قد خبروا تحولات «ميلاد من جديد»، وتراوحت حياتهم الروحية بين تحليقات فى الأعالى، ونوبات هبوط ساحقة كانوا يصبحون فيها ضحايا للشعور الزخم بالذنب والاكتئاب الحاد. حينما أنهك الإحياء نفسه و نفد وهجه ومفعوله، قام أحدهم بالانتحار مقتنعا أن فقدانه هذا الفرح والنشوة لابد وأن يعنى أن مصيره إلى جهنم. كانت طقوس ديانات الأسرار، مثل الإليوسية، فى روحانية ما قبل العصر الحديث قد ابتُدِعت واستخلِصت للأخذ بيد الناس من حالات الجموح العاطفى والوصول بهم إلى الجانب الآخر. أما فى نورثامبتون، فكانت عبادة الحرية الأمريكية الجديدة تعنى عدم وجود مثل ذلك الإشراف، وأن كل شىء كان تلقائيا حرا، وأنه كان من المسموح للناس الاستغراق فى العاطفة إلى الحدود القصوى بأسلوب ثبت أنه مُهلِك للبعض.

كان ثمة تناقض فى حركة التنوير. أصر الفلاسفة على أنه ينبغى للأفراد القيام بعملية التفكير المنطقى بأنفسهم، وعلى الرغم من ذلك، لم يكن من المسموح لهم التفكير إلا وفق الأسلوب العلمى فقط. كان يتم تنقية الأساليب التلقائية الأخرى للتوصل إلى الحقيقة، بأسلوب برهن على أنه سيمثل إشكالية كبرى للدين. مرة أخرى، دعا القادة الثوريون فى أوروبا وأمريكا بحماس هائل إلى مبدأ الحرية غير المقيدة، بيد أن مبدأ الطبيعة الذى تبنوه كان آليًا محضا اعتقدوا أن حركة كل مُكوِّن فى الكون وتنظيمه كان محتما ومُحدّدا بالكامل من خلال تفاعل جزئياته وسلطة القانون الطبيعى الدقيقة الثابتة. وفى إنجلترا، استُخدِم علم الكون لنيوتون للمصادقة على نظام اجتماعى تَحْكُم فيه الفئات «العليا» الطبقات «الدنيا»، على حين ترأس ملك الشمس، لويس الرابع عشر فى فرنسا، بلاطا كان رجاله فيه يدورون بخنوع حوله، كل منهم فى

مداره المُحدّد له. كان مبدأ سلبية المادة التى كانت بحاجة إلى التنشيط والتحكم فيها من خلال قوة عليا، مركزياً فى هذه الرؤية السياسية وفى العلم النيوتونى. كان كل من يتحدى تلك الأرثوذكسية يعتبر مرتبطا بالحركات الراديكالية وينتهى به الأمر إلى مشاكل مع المؤسسة.

اعتقد چون تولاند، وبأسلوب يماثل سپينوزا بقدر، أن الله متماه مع الطبيعة، من ثم، فالمادة ليست خاملة بل دينامية. مات تولاند فى فقر مدقع. واعتقد چون لوك أن من المحتمل أن يكون بوسع بعض القوى المادية أن «تفكر» وتؤدى بعض العمليات العقلانية وكان للوك ماضٍ رايكالى حيث تورط فى الاضطرابات التى سبقت ثورة عام ١٦٨١ المجيدة، من ثم، أُجبر على الهرب إلى هولندا حيث عاش ست سنوات بالمنفى تحت اسم «المستر ڤان دير ليندن». رأى رجل الدين المشيخانى والكيميائى چوزيف پريستلى (١٧٣٣-١٨٠٤)، والذى كان قد ظل طوال حياته مغتربا عن الجماعة - تعلم فى داڤنترى بدل أكسفورد ومارس مهامه الدينية فى الأقاليم - رأى أن نظرية نيوتن لم تعتمد فى واقع الأمر على خمول المادة. وحينما تحدث مؤيدا الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، قام بعض الغوغاء ببرمنجهام بحرق منزله عن آخره، وبعدها هاجر إلى أمريكا.

قام آخرون بمساءلة فكرة وجود منهج واحد فقط للوصول إلى الحقيقة. رأى جيامباتيستا ڤيكو (١٦٦٨- ١٧٤٤) أستاذ الخطابة بجامعة نابولى، أن المنهج التاريخى كان بنفس درجة موثوقية المنهج العلمى رغم أنه يقوم على أساس فكرى مختلف. قال إن دراسة الخطابة توضح أنه من المهم معرفة الجمهور الذى يخاطبه الفيلسوف وفهم سياق الخطاب من أجل التمكن من فحواه. كانت الرياضيات بالغة الأهمية للعمل الجديد، وزُعِم أنها تأتى بنتائج

واضحة مميزة يمكن تطبيقها على جميع مجالات الدراسة. لكن ڤيكو رأى أن الرياضيات كانت جوهريا، لعبة ابتدعها البشر وتحكموا فيها. فإذا طُبِّق المنهج الرياضى على مواد منفصلة عن العقل البشرى - على النظام الكونى مثلا - فلن تلائمه ولن نصل إلى نفس النتيجة، ذلك لأن الطبيعة تعمل باستقلال عنا، ولا نستطيع فهمها بعمق كفهمنا للأشياء التى نبتدعها. لكن بإمكاننا تطبيق هذا المنهج على التاريخ، لأن الحضارات من صنع البشر. وتساءل لِمَ يستنفد الفلاسفة المحدثون طاقاتهم فى «دراسة الطبيعة، ولأن الله هو صانعها، فهو وحده الذى يعرفها»؟

اعتقد ڤيكو أيضا أن دراسة التاريخ تعتمد على ما كان الفيلسوف پاسكال قد أسماه «القلب». بيّن ڤيكو أنه بدلا من التفكير المنطقى والاستقراء، على المؤرخ استخدام خياله والتماهى مع عالم الماضى. فحينما يدرس المؤرخ الماضى، عليه أن يتجه داخل ذاته ويعيد تشكيل مراحل تطوره هو، كى يتمكن من إعادة تشكيل مراحل تطور أية ثقافة معينة بتعاطف. ومن خلال دراسة المؤرخ للاستخدامات المجازية والصور، يكتشف التصورات والمدركات المسبقة التى جمعت أفراد ذلك المجتمع معا «حُكْم دونما تمعن، شعرتْ به مجموعة بكاملها، شعب بأكمله، أمة بأكملها». ومن خلال عملية التفكير الاستبطانى هذا، يتمكن المؤرخ من إدراك مبدأ داخلى مُوحِّد يمكّنه من تقدير تفرد كل حضارة وتذوقها. فليست الحقائق مطلقة، وما هو حقيقى فى إحدى الثقافات لا يكون كذلك فى ثقافة أخرى، والرموز التى كانت قد ناسبت شعباً لا تناسب آخر ولا تخاطبه. يصبح بوسعنا فهم التنوع الثرى للطبيعة البشرية حينما نتعلم الدخول بأسلوب تخيلى تعاطفى إلى السياق الذى تطورت فيه فرضية ما أو معتقد مُعين.

يبدو أن ڤيكو كان قد استشعر الهوة التى فُتحت لتفصل العِلْم عن الدراسات الإنسانية، والتى لم تكن موجودة من قبل. كان المنهج العلمى يُعلِّم المُلاحِظ التباعد عن موضوع تفحصه والانفصال عنه، لأن من الأمور الجوهرية فى العلم أن تكون نتيجة التجربة واحدة بغض النظر عمن يُجريها. تطمح الحقيقة الموضوعية إلى الاستقلال عن السياق التاريخى، كما يُفترض بدهيا، أن تكون تلك الحقيقة هى ذاتها فى أية فترة زمانية أو أية ثقافة. ينزع هذا النهج إلى تثبيت الحاضر وتقديسه، بحيث نُسْقِط ما نعتقده ونصدقه نحن، على الماضى، أو على إحدى الحضارات التى قد تكون رموزها وافتراضاتها المسبقة مختلفة عن حضارتنا. أشار ڤيكو إلى هذا التقييم غير الناقد للمجتمعات الغريبة عنا وللأزمنة التاريخية البعيدة بصفته «أوهام» الباحثين والحكام: «إنها لخاصية أخرى للعقل البشرى أن الناس وحيثما لا يستطيعون تكوين فكرة عن أشياء مجهولة أو بعيدة، يحكمون عليها وفقا لما هو مألوف ومتاح لهم».

وضع ڤيكو إصبعه على نقطة مهمة. لقد تعاطى المنهج العلمى بروعة وذكاء مع الأشياء، لكنه يصبح أقل إقناعا حينما يطبّق على الناس والفنون. ليس للنهج العلمى الكفاءة الكافية لتقييم الدين الذى لا يمكن فصله عن البشر المُعتقِدين الذين يمارسونه، ومثل الفنون، يُنمّى الدين إدراكاً مؤسسا على الخيال والقدرة على التماهى. يبدأ العالم بتكوين النظرية ثم يسعى لإثباتها تجريبيا؛ أما الدين فيعمل عكس ذلك، وتنتج استبصاراته عن الممارسات العملية. وفيما يتعاطى العلم مع الحقائق الواقعية، فإن الحقيقة الدينية رمزية وتتنوع رموزها وفقا للسياق؛ تتغير فيما يتغير المجتمع، وينبغى فهم سبب هذه التغيرات. والدين، مثل الفنون، تحويلى. فعلى حين يُفترض أن يظل

العالم متباعدا عن موضوع دراسته ومنفصلا عنه، فلابد للإنسان المتدين أن يتحول من خلال لقائه برموز عقيدته – بنفس الأسلوب الذى يمكن لتأمل إحدى اللوحات العظيمة أن يحدث تغييرا دائماً فى نظرة المشاهد الذى يتمعنها.

وفيما ازداد زخم التنوير، توصل جان جاك روسو (١٧١٢– ١٧٧٨) الفيلسوف، والمربى، وكاتب المقالات، الذى ولد فى جنيف واستقر فى باريس، توصل إلى كثير من الاستنتاجات كتلك التى توصل إليها ڤيكو. لم يشارك رؤية الفلاسفة المتفائلة عن التحسن. اعتقد أن العلم يسبب الانقسامات لأن القليلين هم من يستطيعون المشاركة فى الثورة العلمية فيما تُترك الغالبية لحالها، وكنتيجة لهذا أصبح الناس يعيشون فى عوالم فكرية مختلفة. بإمكان العقلانية العلمية، التى تغرس الموضوعية المتجردة، أن تحجب «الاشمئزاز الطبيعى الناتج عن رؤية أى كائن حساس يهلك أو يعانى». اعتقد روسو أن المعرفة قد أصبحت عقلية دماغية، وبدلا من ذلك ينبغى علينا أن ننصت للقلب. لم يعتقد روسو أن القلب يساوى العواطف؛ بل إنه يشير إلى توجه متلقٍ وانتظار صامت – لا يختلف عن الصمت والهدوء الباطنى الإغريقى – استعداداً للإنصات إلى الدوافع الغريزية التى تسبق ألفاظنا وأفكارنا الواعية. وبدلا من الإصغاء للعقل وحده، ينبغى علينا أن نتعلم سماع هذا الصوت الخجول للطبيعة كترياق للتفكير المنطقى العدوانى للفلاسفة الذين سعوا للتحكم فى العواطف وإخضاع عناصر الحياة الجامحة للتحكم.

حاول روسو فى روايته «إميل» (١٧٦٢) أن يوضح كيف يمكن تربية الطفل بحيث يستبطن تلك التوجهات. كان تفريغ الذات جزءا حاسما من برنامجه؛ حيث اعتقد أن حب الذات هو الذى يسجن الروح داخل نفسها ويفسد قدراتنا

على التفكير بسبب الأنانية والاستكبار. من ثم، وقبل أن يبلغ الطفل سن الرشد، ينبغى أن يتعلم ألا يسيطر على الآخرين؛ وبدلا من أن يتلقى تعليما نظريا بحتا، عليه أن ينمى فضيلة التراحم من خلال الأفعال الخاضعة للتنظيم والتهذيب. وكنتيجة لهذا التدريب، فحينما تنمو قواه على التفكير فى النهاية، لن تكون قد شوهتها الأنانية وحب الذات. فى هذه الرواية، يصبح باستطاعة إميل إقناع صوفيا، التى تمثل الحكمة، بالزواج منه، فقط حينما يصبح مستعدا للتخلى عن تعلقه بها: «سيَحُول الخوف من فقدانك كل شىء، بينك وبين تملّك كل شىء». لم يُعر روسو المسيحية أى اهتمام حيث شعر أن إلهها قد أصبح مجرد إسقاط للرغبات البشرية. كان يبحث عن «الإله» المتعالى على المعتقدات والمبادئ القديمة، إله يُكتشف من خلال تفريغ الذات، التعاطف والتفحص المتواضع لروعة الكون وجلاله.

رعى روسو الحماس والولع الثورى الذى كان له أن يجعل حركة التنوير الفرنسية سياسية وأكثر راديكالية. لكن، لم يكن هذا هو الوضع فى أمريكا. فعلى النقيض من الثورة الفرنسية لم يكن لحرب الاستقلال الأمريكية ضد بريطانيا أى بُعدٍ مُعادٍ للدين. (١٧٧٥- ١٧٨٣)، خَبر قادتها - جورج واشنطون (١٧٣٢- ١٧٩٩)، جون آدمز (١٧٢٥- ١٨٢٦) جفرسون، وفرانكلين- الثورة كنضال علمانى برجماتى ضد إحدى القوى الإمبريالية. كان «إعلان الاستقلال» الذى صاغه جفرسون، وثيقة تحديث تنويرية أساسها مفهوم لوك عن حقوق الإنسان، وخاطب المُثل الحديثة للحكم الذاتى والاستقلال والمساواة باسم الله إله الطبيعة. لم يستطع غالبية المستوطنين الأمريكيين التواصل مع دين ألوهية الطبيعة Deism التى كان يؤمن بها قادتهم وطوروا شكلا من الكالفينية الثورية مكنهم من الانضمام إلى المعركة.

حينما كان قادتهم يتحدثون عن الحرية، كانوا هم يفكرون فى حرية أبناء الله التى تحدث عنها القديس بولس، وكانوا يستدعون النضال البطولى الذى خاضه آباؤهم ضد الأنجليكانية المستبدة بإنجلترا، بل إن بعضهم اعتقد أن المسيح، وكنتيجة للثورة، سرعان ما سيقيم ملكوت الله فى أمريكا. كانت تلك الأيديولوجيا المسيحية نسخة كالڤينية من عقيدة چون آدمز بأن استيطان (المسيحيين الغربيين) لأمريكا هو جزء من خطة الله لتنوير البشرية جمعاء وقناعة توماس پاين (١٧٣٧- ١٨٠٩) أن باستطاعة المستوطنين المسيحيين بدء العالم من جديد. وعلى النقيض من الأوروبيين، لم يعتبر الأمريكيون الدين قامعا بل وجدوه قوة محررة مكنتهم من الاستجابة الإبداعية لتحديات الحداثة والتعاطى مع مُثُل التنوير بأسلوبهم الخاص.

بيد أن الوضع كان مختلفا فى فرنسا حيث اعُتبر الدين جزءا من النظام القديم ينبغى التخلص منه، حتى أنه ظهر إلحاد وليد أنكر وجود الله. فى عام ١٧٢٩، توفى چان مسلييه، وكان كاهنا نموذجيا، سئم من الحياة وترك ممتلكاته القليلة الهزيلة لأبناء إبراشيته. اكتشفوا، بين أوراقه، مسودة مذكراته وكان قد أعلن فيها أن المسيحية خدعة وضلال. لم يملك الجرأة أبدا أثناء حياته أن يجاهر بذلك، لكنه بعد أن مات، لم يعد ثمة ما يخشاه. ذكَر أن الدين كان مجرد وسيلة لإخضاع الجماهير وأن الكتاب المقدس ملىء بالمتناقضات الداخلية ونصوصه فاسدة. رأى أن المعجزات، والرؤى، والتنبوءات المفترض لها أن «تُثبت» الوحى الإلهى، كانت ذاتها غير معقولة. وأن تعاليم الكنيسة عبثية، وكذلك كانت «براهين» ديكارت ونيوتن. اعتقد أن المادة لا تتطلب إلهاً يُطلِق حركتها؛ بل إنها دينامية وتتحرك بواسطة زخمها الذاتى، ولا يعتمد وجودها على شىء سوى ذاتها. قام ڤولتير بتوزيع تلك المسودة سرا بعد أن

عالجها ليجعل من مسليير مؤمنا بألوهية الطبيعة. بيد أننا نجد فى تلك المذكرات بذرة لكثير من الكتابات الإلحادية التى ظهرت فيما بعد، كما أنها توضح أن بإمكان الأسلوب الجديد لإثبات وجود الله أن يأتى بسهولة، بنتائج عكسية؛ وتوضح أيضا الرابطة بين الرغبة فى التغيير الاجتماعى ونظرية دينامية المادة.

وكما كان الحال فى إنجلترا، كان الناس فى فرنسا قد بدأوا ينقذون عقيدة التنوير الاجتماعية الأرثوذكسية القائلة بخمول المادة. فى عام ١٧٠٦، كان جان بيجان (١٦٥٤- ١٧٣٩) قد أهدى لويس الرابع عشر نموذجا لنظام كوبرنيكوس الكونى صنعه بنفسه. كان بيجان رجلا عسكريا، ثقف نفسه بنفسه، ذا ميول للفيزياء الميكانيكية. لكنه وجد أن تجربة تشكيله لكونه الخاص، إذا جاز التعبير، جرَّدت الخليقة من عامل الدهشة. وفجأة بدا له الله أحد الحرفيين مثله. توصل أيضا إلى الاعتقاد أن المادة ليست سلبية. أما صهر بيجان، أندريه بيير لوجوى دوبرو منتقال (١٧١٦- ١٧٦٤)، فقد مضى ينشر بشارة المادة الدينامية، ويقلص من أهمية الله وحجمه أمام جماهير غفيرة حتى أُجبِر على الفرار إلى هولندا. أيضا، التجأ جوليين دولامترى (١٧٠٩- ١٧٥١) إلى هولندا حيث نشر كتابه «الإنسان، آلة» (١٧٤٧) الذى سخر فيه من فيزياء ديكارت ورأى أن الذكاء متعضون فى البنية المادية للكائنات الحية - اعتقد مترى أن الله مجرد شىء زائد. ضمّن فى كتابه محادثة مع شخص متشكك مثله كان يتوق للقضاء على الدين:

«لا لمزيد من الحروب اللاهوتية، لا لمزيد من جنود الدين - هؤلاء الجنود البشعون. ستسترد الطبيعة عافيتها ونقاءها بعد أن أصيبت بذلك السم المقدس. وبعد أن يصم البشر، وقد استردوا سكينتهم، آذانهم عن جميع

الأصوات لن يتبعوا سوى الإملاءات التلقائية لكيانهم البشرى، تلك الأوامر الوحيدة التى لا يمكن ازدراؤها بدون الإفلات من العقاب، والتى باستطاعتها وحدها أن تقودنا إلى السعادة من خلال مسارات الفضيلة المحببة».

كان الناس قد سئموا سلوك الكنائس المتعصب، لكن القليلين فقط هم من كانوا على استعداد إلى قطع علاقتهم بالدين نهائيا. حتى أن لامترى ذاته، حرص على النأى بنفسه عن آراء ذلك «التعيس» التى أوردها فى كتابه.

بيد أنه فى عام ١٧٤٩، دخل الروائى الفرنسى دونيس ديدرو (١٧١٣-١٧٨٤) السجن بڤينسن بسبب كتيب إلحادى ألفه. كان فى شبابه شديد التدين لدرجة أنه فكر فى أن يصبح راهبا جزويتيا. وحينما اضمحل وهج حماس المراهقة، سار ديدرو فى ركاب الفلاسفة ودرس الأحياء والفيسيولوجيا والطب، لكنه لم يكن قد تخلى عن الدين بعد. ومثل مؤمن يعتقد فى ألوهية الطبيعة، سعى بقراءته «تأملات فلسفية» إلى أدلة عقلانية من ديكارت ونيوتن ليجابه بها الإلحاد، ووجد بنفسه ميلاً متزايداً إلى البيولوجيا المجهرية التى زعمت وجود أدلة على وجود الله فى تفصيلات الطبيعة الدقيقة. لكن قناعته لم تكن كاملة. اعتقد ديدرو بقوة أنه يجب إخضاع حتى أكثر ما نعتز به من معتقدات إلى التفحص النقدى الصارم، وبدأ فى حضور محاضرات دائرة پيچان، حيث عرف معلومات عن تجارب جديدة سببت له القلق. فى عام ١٧٤١ اكتشف إبراهام ترمبلى، عالم الحيوان السويسرى، أن باستطاعة ثعبان البحر إحياء نفسه بعد قطعه نصفين. وفى عام ١٧٤٥، اكتشف الكاهن الكاثوليكى جون تبرڤيل نيدهام أن المخلوقات الدقيقة تتوالد ذاتيا فى الأطعمة السائلة المتعفنة وأن عالما كاملا من الكائنات الحية بالغة الصغر تتواجد فى نقطة مياه واحدة، تأتى إلى الوجود ثم تموت وتحل محلها أخرى فى فترة

زمنية لا تتجاوز بضع دقائق. وربما لم يتمالك ديدرو آنئذ من التفكير فى أن الكون بأكمله كان يماثل قطرة المياه تلك، يخلق نفسه ويعيد خلق نفسه إلى ما لا نهاية دونما تدخل من أى خالق.

فى عام ١٧٤٩، نشر ديدرو كتيّبه بعنوان «خطاب عن العميان لاستخدام المبصرين»، والذى كان السبب فى دخوله السجن، واتخذ شكل حوار بين نيكولاس ساندرسون عالم الرياضيات، من كامبريدج، وجريڤيس هولمز رجل الدين الأنجليكانى والذى يمثل الأرثوذكسية النيوتينية. لا يستطيع ساندرسون الذى يرقد على فراش الموت، أن يجد أى سلوى فى برهان نيوتن على وجود الله لأنه لا يستطيع أن يرى أيًا من تلك العجائب التى كانت قد تركت عميق الانطباع على هولمز. كان ساندرسون قد أُجبر على الاعتماد على الأفكار التى يمكن اختبارها رياضيا وأدى ذلك به إلى إنكار تام لوجود الله. يعتقد ساندرسون أنه فى بداية الزمان لم يكن ثمة أثر لله – فقط جزئيات تدور فى دوامات فى الفراغ الحاوى. ومن المحتمل أن تطور عالمنا كان أكثر اعتباطية وفوضى بكثير من العملية الهادفة المرتبة المنظمة التى وصفها نيوتن. وهنا يصبح من اللافت أن ديدرو يجعل ساندرسون يتصور عملية انتقاءٍ طبيعى قاسية وأن «الخطة» التى نراها فى الكون ترجع ببساطة إلى بقاء الأصلح. لم يستطع البقاء سوى الحيوانات التى لم تكن بنيتها معيبة بأية درجة مهمة، وتلك التى كانت باستطاعتها أن تعيل نفسها، فيما فنيت تلك التى كانت بدون رءوس أو أقدام أو أمعاء. لكن مازالت تلك الإعاقات تحدث: يصيح ساندرسون قائلا «انظر إلىّ يا مستر هولمز. ليس لى عينان. ماذا فعلت أنا وأنت لله كى يمنح أحدنا العينين ويحرم الآخر منهما؟». ثم يخبره «ليس ثمة جدوى من الاعتماد على الله للعثور على حل لتلك المشاكل المعضلة». ثم ينهى ساندرسون كلامه قائلاً: «صديقى العزيز مستر هولمز، اعترفْ بجهلك».

حينما أرسل إليه ڤولتير خطاب عتاب فى سجنه، أجابه ديدرو أن تلك لم تكن آراءه. كتب إليه يقول «أعتقد فى وجود الله، لكننى أتعايش جيدا مع الملحدين». لكنه، فى واقع الأمر، لم يمثل له وجود الله أو عدم وجوده مشكلة فقد غدا الله حقيقة متسامية لكنها عبر مجدية. «من المهم جدا عدم الخلط بين البقدونس والشوكران (نبات سام) لكن الاعتقاد فى الله أو عدم الاعتقاد فيه غير مهم بإطلاقه» هكذا قال. وبعد الإفراج عنه، دُعى ديدرو لمراجعة دائرة معارف (إنسايكلوپيديا) إفريم تشامبرز (١٧٢٨)، لكنه غيّرها بالكامل، وجعل من الإنسايكلوپيديا سلاحا رئيسيا له فى حملته لتنوير المجتمع. أسهم فيها جميع كبار الفلاسفة والمفكرين الأحرار لعصر التنوير الفرنسى، وعلى الرغم أن ديدرو ظل مهددا على الدوام بالنفى أو السجن، إلا أنه تمكن من الانتهاء من آخر جزء منها عام ١٧٦٥.

كان أحد مراجعيه هو پول هنريتش ديتريش، البارون دهولباخ (١٧٢٣-١٧٨٩)، وكان يشرف على صالون بشارع رويال عرف عنه أنه مُستَولدُ، للإلحاد، هذا على الرغم من أن ثلاثة فقط من أعضائه هم من كانوا ينكرون وجود الله. وفى عام ١٧٧٠ نشر دهولباخ، بمساعدة ديدرو، كتاب «نظام الطبيعة» الذى جمع فيه مناقشات أعضاء الصالون. كان دهولباخ معاديا متحمسا لفكرة الألوهية وأراد أن يحل العلم محل الدين. لم يعتقد بوجود علة نهائية، حقيقة عليا، أو خطة عظمى. لقد وُلّدت الطبيعة نفسها وحافظت على نفسها بالحركة ومن خلال الحركة، واضطلعت بكل المهام التى نُسبت تقليديا لله:

«ليست الطبيعة عملا؛ لقد ظلت دائما موجودة ذاتيا؛ وفى كنفها يتم تشغيل كل شىء؛ إنها معمل هائل، مزود بمواد، يصنع أدوات تستخدمها فى عملها.

جميع أعمالها هى نتاج طاقتها، ولتلك العوامل أو الأسباب التى تصيغها، التى تحويها، هى التى تطلق حركها وتشغلها. عناصر أزلية، لم تُخلق، غير قابلة للتدمير، دوما فى حركة، وبتجميع أنفسها بأساليب مختلفة، تلد كل الظواهر التى تراها أعيننا».

رأى أن البشر المستنيرين تعلموا تفحص العالم بعقلانية، وخلّصوا أنفسهم من وهم الإله، تعلموا أن يفكروا لأنفسهم وبأنفسهم، فالعلم وحده هو الذى بإمكانه تشريع الأخلاق، الدين، السياسة، وحتى الفنون.

اعتقد دهولباخ أن الدين وُلِد من الضعف والخوف والخزعبلات؛ خلق الناس آلهة ليملأوا الفراغات فى معارفهم، من ثم فالعقيدة الدينية كانت فعل جبن فكرى ويأسا. فى البداية، جسد الرجال والنساء قوى الطبيعة وشخصنوها، وخلقوا آلهة فى صورهم، لكنهم فى النهاية أدمجوا كل تلك الربُبيات فى إله هائل عملاق لم يكن سوى إسقاط لمخاوفهم ورغباتهم. لم يكن «إلههم» سوى رجل عملاق مُضخّم، «جُعِل غير مصدّق وغير مفهوم» من خلال جمعه بين صفات متنافرة. «اعتقد أن الله مخلوق خرافى لا يُفهم، مجرد نقيض للقيود والحدود البشرية. مثلا، تعنى لانهائيته أنه ليس له حدود مكانية، لكن مثل هذا الكائن لا يمكن تصوره بإطلاقه. كيف لنا أن نوفق بين هذا الإله الخيّر كلى الحضور ومعاناة البشرية؟ كان من المحتم لهذا اللاهوت غير المنطقى أن يتهاوى فى «عصر العقل». رأى دهولباخ أن ديكارت، نيوتن، ميلبرانش وكلارك، الذين حاولوا جميعهم إنقاذ الله، كانوا ملحدين مُقنَّعين. مثلا، كان كلارك قد افترض بدْها أنه لم يكن بوسع المادة أن تأتى بنفسها إلى الوجود، لكن الأبحاث التى أُجريت مؤخراً قد أثبتت خطأه. بل إن حتى نيوتن العظيم قد استسلم لتحيزات طفولية. لم يكن هذا الكائن الذى دعاه «السيد»

سوى طاغية مؤلَّه، خُلِق فى صورة الرجل القوى. لو أن هؤلاء الفلاسفة أدركوا أنه لم يكن ينبغى لهم النظر أبعد من الطبيعة، لأتوا بفلسفة صحيحة لا تشوبها أخطاء.

أُسْمِى كتاب «نظام الطبيعة» إنجيل «المذهب الطبيعى العلمى» أو «العلموية» الذى ظل يغذى الهجوم على العقيدة والإيمان، وعقيدة هذا المذهب المركزية تتلخص فى أن العالم الطبيعى أو المادى هو الحقيقة الوحيدة؛ وليس بحاجة إلى «علة» خارجية لأنه ذاتى الخلق. ليس ثمة إله، أو روح، أو حياة أخرى، وعلى الرغم من أن بإمكان البشر أن يحيوا حياة هادفة مبدعة، فليس للعالم أى معنى أو هدف خاص به. هو فقط «يكون». والعلم وحده هو الذى بإمكانه أن يمدنا بفهم موثوق فيه للحقيقة جمعاء، بما فى هذا الذكاء والسلوك البشرى. ولأنه ليس بالإمكان أن تتوفر أدلة على وجود الله، يتعين على جميع الأفراد العقلانيين المتعلمين نبذ الدين تماما.

جعلت الكنائس نفسها عرضة لهذا النمط من الهجوم تحديدا، وذلك لأنها استندت بقوة إلى العلم الحديث، الذى عمل على إضعاف مصداقية العلماء ذاتهم الذين كانوا قد دافعوا عن الدين. فوّض مجمع رجال الدين الفرنسى اللاهوتى البارز الأب نيكولا سيلفستر برجييه لكتابة رد هجومى؛ لكن كتابه «تفحص المذهب المادى» (١٧٧١) المكون من جزأين سقط فى الفخ القديم، إذ قال إن العلماء قد أثبتوا خمول المادة، وكنتيجة لهذا «فنحن مجبرون على أن نعتقد أنه يوجد فى هذا الكون، قوة ذات طبيعة مختلفة، كائن نشط لابد أن تنسب الحركة إليه بصفته العلة الأولى، محرك الآلة». كان العلم النيوتونى هو مصدر معلومات برجييه الوحيد الذى بدا غير مدرك للقناعة التقليدية قبل الحداثية بأنه ليس بإمكان العالم الطبيعى أن يخبرنا بشىء عن الله. كان نهج

الصمت غريباً تماما عليه بدرجة أنه لم يجد أن ثمة خطأ فى الحديث عن الله بصفته أحد الكائنات، إحدى المواد الموجودة فى الكون.

بدت الثورة الفرنسية (١٧٨٩) بدعوتها إلى الحرية والمساواة والأخوة، وأنها تجسد مبادئ التنوير، واعدة بالإتيان بنظام عالمى جديد. لكن، وكما حدث، كان ذلك لفترة وجيزة درامية. فى نوفمبر ١٧٩٩، أقام نابليون بونابرت (١٧٦٩– ١٨٢١) ديكتاتورية عسكرية مكان الحكومة الثورية. كان للثورة عميق الأثر على الأوروبيين الذين كانوا متعطشين للتغيير السياسى والاجتماعى، لكنها، ومثل الحركات التحديثية السياسية الأخرى، شوهتها إجراءات العنف القاسية، والتوجهات المتصلبة. استخدمت الثورة التى كانت قد قاتلت باسم الحرية، العنف المنهجى لقمع المعارضة؛ أنتجت «حكم الإرهاب» (١٧٩٣– ١٧٩٤) و«إعلان حقوق الإنسان» فى آن؛ كما أعقب اقتحام سجن الباستيل فى ١٤ يوليو ١٧٨٩، مذابح سبتمبر بعد ثلاث سنوات.

بعد مذابح سبتمبر، توّج جاك إبير (١٧٥٤– ١٧٩٤) القائد الثورى الملحد المتطرف، إلهة العقل على مذبح كاثدرائية نوتردام العالى، وجرّد القديسين من مكانتهم لصالح الأبطال الثوريين، وألغى القداس، ونهب الكنائس. بيد أن الجمهور العام لم يكن مُعدًا بعد للتخلص من الله، وحينما استولى ماكسميليان روبسبير (١٧٥٨– ١٧٩٤) على السلطة ألغى «عبادة العقل» لتحل محلها عبادة «الكائن الأعلى» الطبيعية الملطفة، وبعث بإبير إلى المقصلة، حيث تبعه هو بعد بضعة أشهر. حينما أصبح نابليون بونابرت القنصل الأول، أعاد للكنيسة الكاثوليكية مكانتها. لكن رمزية التخلى عن الله لصالح العقل ربطت فكرة الإلحاد بالتغيير الثورى. ومنذ آنذاك، ارتبط الإلحاد فى أوربا – لكن ليس فى الولايات المتحدة – بأسلوب لا ينفصم بالأمل فى عالم أكثر عدالة ومساواة.

فى تلك الأثناء قوّض فكر تنويرى مختلف أُسَسَ معتقدات حركة التنوير ودينها القائم على العلم. كان بعض العلماء والفلاسفة قد بدأوا فى تفحص العقل البشرى وطوروا نظرية معرفية ناقدة ألقت بالشكوك على قدرة العقل فى الوصول إلى أى نوع من اليقين. أبدى عالم الفيزياء بيير - لوى مورو دو موبرتيوس (١٦٩٨- ١٧٥٩)، والذى كان نيوتنيا ملتزما فى شبابه، شكوكا عميقة على أية محاولة لإثبات وجود الله: كان الفلاسفة، رجال الدين، والفيزيائيون يجدون الأدلة على صنع الله فى «أجنحة الفراشات وفى كل شبكة عنكبوت»، رغم احتمال أن تكون تلك الأشياء قد وجِدت بالصدفة. كما أنه من المحتمل جدا أن يكون بإمكان العلماء فى المستقبل العثور على تفسير طبيعى لـ «خطة» الطبيعة الظاهرية، وآنذاك ماذا سيحدث للعقيدة المؤسسة على نظرية علمية؟ ورأى الفيزيائى جان لو روند دالمبير (١٧١٧- ١٧٨٣) أنه من غير المجدى الاستدلال على وجود الله من الطبيعة لأن معرفتنا بالكون قاصرة غير كاملة: باستطاعتنا ملاحظته فى لحظة زمانية معينة فقط. أيضا، فثمة قرائن كثيرة فى الطبيعة على أن الله، وكأبعد ما يكون عن كونه خالقا مُحبًا، قد يكون فى واقع الأمر عنيدا غير مسئول. كما اعتقد عالم الرياضيات الفذ مارى جان كاريتا، مركيز دوكوندورسيه (١٧٤٣- ١٧٩٤) أنه ينبغى على العلماء التركيز على دراسة علم النفس، لأننا قد نجد أن بغير إمكاننا أن نفهم القوانين الطبيعية التى اعتقدنا أننا قد لاحظناها، وهذا سيجعل من موضة اللاهوت الطبيعى تبديدا للوقت.

قوض الفيلسوف الاسكتلندى دايڤيد هيوم (١٧١١- ١٧٧٦) بأريحية أفكار ديكارت «الواضحة» و«المميزة». رأى أنه ليس باستطاعتنا أبدا التوصل إلى المعرفة الموضوعية واليقين المطلق، لأن العقل البشرى يفرض نظامه الخاص

على العدد الهائل الفوضوى من المعطيات الحسية، من ثم، فإن جميع معارفنا، وبأسلوب حتمى، ذاتية، لأن من يشكلها ويقررها هى النفس البشرية. كما أن علومنا الميتافيزيقية لا تتعدى كونها فانتازيات محضة، ولا تعكس ما يسمى بقوانين الطبيعة سوى التحيزات البشرية. ليس بوسع العلم المؤسس على الملاحظة والتجربة أن يمدنا بأية معلومات عن الله بأسلوب أو آخر. بيد أن هيوم تخطى كل الحدود. فقد بدا بانتهاكه الافتراضات العلمية والدينية وأنه يجرد المشروع العلمي برمته الذى كان قد أصبح جوهريا للأسلوب الذى كان الناس يفكرون به، يجرده من المصداقية. وهكذا، لم يكن له سوى قليل من الأتباع بعد أن نُظر إليه على أنه غريب الأطوار ومستهتر. عارضه فلاسفة القرن الثامن عشر الاسكتلنديون بأن زعموا أن الحقيقة موضوعية فعلاً، ومتاحة لأى إنسان سليم التفكير.

إلا أنه بعد حوالى ثلاثين عاما، قرأ الفيلسوف الألمانى إمانويل كانط (١٧٢٤- ١٨٠٤) ما كتبه هيوم، و شعر وكأنما قد استيقظ من سبات دوغماتى عميق. وافق فى كتابه «نقد العقل المحض» (١٧٨١) على أن فهمنا للعالم الطبيعى عميق التكيف ببنية عقولنا بدرجة يستحيل معها الوصول إلى أية معرفة عن الحقيقة التى نسميها الله، الكامنة خارج متناول حواسنا. لا نستطيع إثبات وجود الله، أو إثبات عدم وجوده، لأننا لا نملك أى وسائل للبرهان. وعلى الرغم من أن كانط كان يعتبر التنوير حركة تحريرية، إلا أن فلسفته رأت التنويريين، واقعيا، معتقلين داخل عمليات تفكيرهم الذاتية. لكن كانط أبدى موافقته على أنه من الطبيعى للبشر أن يُكوّنوا أفكارا خارج نطاق متناول عقولهم. ذات مرة، طمأن خادمه قائلاً إنه «حطم الدوغما، فقط من أجل إفساح مجال للإيمان»، لكنه أيضا لم يُبد أى اهتمام بطقوس الدين ورموزه تلك التى تجعل الإيمان قابلاً للحياة.

فى ٨ أغسطس ١٨٠٢، قام نابليون بزيارة بيير = سيمون دو لابلاس (١٧٤٠- ١٨٢٧) أهم عالم فيزياء فى جيله. وكعالم شبَّ تحت رعاية دالمبير، ونشأ معجبا بكانط، فقد شاركهما دوبلاس تقييمها لتواضع قدرات العقل البشرى. حينما كان يناقش الأمور العلمية، لم يكن يأتى أبدا على ذكر الله، ليس لأنه كان معاديا للدين، بل لأنه كان يرى أنه لا علاقة لله بالفيزياء. مثلت تلك الحيادية تجاه العقيدة نقلة جديدة - كانت العقيدة قد شغلت كوبرنيكوس، كبلر، جاليليو، ديكارت ونيوتن، ورأوا جميعهم الله ذا أهمية جوهرية لعلمهم. لكن لابلاس حينما طور «الفرضية السديمية» برهن على أن عدم إقحام الله على تفسير الظواهر العلمية أمر فى منتهى السهولة. اقترح فى ملاحظة أضافها إلى الطبعات اللاحقة من كتابه الشهير «عرض للنظام الكونى» (١٧٩٦) أن النظام الشمسى نتج عن سحابة غازية غطت الشمس ثم كُثِّفت لتكوِّن الكواكب؛ ثم قامت قوانين الطبيعة الميكانيكية بباقى المهمة. أثناء زيارته للابلاس قيل إن نابليون وقد ملأته الدهشة من عجائب الكون صاح بالسؤال الذى افترض أن إجابته بدهية: «ومن صانع كل هذا؟» أجاب لابلاس بهدوء: «لا حاجة لى لهذه الفرضية».

كانت تلك لحظة دالة، لكن القليلون فقط هم من استطاعوا إدراك تضميناتها أو استيعابها. فى نفس العام الذى قام فيه نابليون بزيارة لابلاس نشر رجل الكنيسة البريطانى الكاهن ويليام پايلى (١٧٤٣- ١٨٠٥) كتابه «اللاهوت الطبيعى» (١٨٠٢)، والذى حقق نجاحا فوريا واهتماما فى العالم المتحدث بالإنجليزية. ومثل لسيوس قبله بقرن، توصل پايلى، تلقائيا، باستخدام محاجة خطة الطبيعة، ودقة تصميمها إلى برهانه القاطع على وجود الله. فكما تدل آلة الساعة المعقدة حينما يُعثر عليها فى الصحراء على صانعٍ

لها، فإن الأسلوب الرائع الذى صُممت به الطبيعة يكشف عن ضرورة وجود خالق. المجنون فقط هو من يتخيل أن الآلة وُجِدت نتيجة الصدفة، وأيضا فالتشكك فى عجائب العالم الطبيعى هو مجرد هراء سخيف - بنية العين المعقدة، المفاصل الدقيقة لجناح حشرة أبومقص، التتابع المنتظم لفصول السنة، أربطة اليد وعضلاتها المتداخلة - كلها تشير إلى خطة إلهية، لكل تفصيل فيها مكانه وهدفه. لم يقصد پايلى أن يوحى بأن الكون يشبه الآلة ببساطة؛ بل أراد أن يقول إنه ميكانيزم صممه الخالق مباشرة. لم يحدث فيه أى تغير أو تطور. فقد خلق الله كل نوع من أنواع النباتات والحيوانات فى هيئته الحالية تماما كما ذُكِر فى سفر التكوين.

لاقت الصورة التى رسمها پايلى قبولا فى وقت كانت الثورة الصناعية قد ألهمت اهتماما جديدا بالآلات. فقد جعل فكرة الله سهلة كما كان نيوتن قد أرادها؛ لم يكن من الصعب فهمها؛ وفرت تفسيرا واضحا عقلانيا؛ وكانت الرؤية التى قالت بأن الكون يعمل بانتظام كالساعة ترياقا مُريحا ضد الحكاوى الرهيبة عن الثورة الفرنسية. ظل كتاب «اللاهوت الطبيعى» طوال القرن التاسع عشر ضمن الكتب المقرر قراءتها لطلبة جامعة كامبريدج، وتقبَّله، لأكثر من خمسين عاما، كبار العلماء البريطانيين والأمريكيين بصفته كتابا معياريا. وجده الشاب تشارلس داروين (١٨٠٩- ١٨٨٢) مقنعا بدرجة عميقة.

لكنه لم يَرُق جميع الناس. كانت الحركة الرومانتيكية قد بدأت بالفعل تتمرد على عقلانية التنوير. اعتقد ويليام بليك (١٧٥٧- ١٨٢٧) الشاعر، والمتصوف، والنحات الإنجليزى أن البشر لقد لحقهم الدمار أثناء «عصر العقل» فحتى الدين قد لحق بالعلم الذى تسبب فى اغتراب الناس عن الطبيعة وعن أنفسهم.

رأى أن المؤسسة قد استغلت العلم النيوتونى واستخدمته لدعم التراتبية الطبقية الاجتماعية التى تقمع «الفئات الأدنى». أصبح نيوتن، فى شعر بليك، رغم ما فى ذلك من ظلم، رمز القمع، والرأسمالية العدوانية، والتصنيع، واستغلال الدولة الحديثة. اعتبر بليك أن الشاعر لا العالم هو النبى الحق للعصر الصناعى. فهو وحده من باستطاعته استدعاء البشر إلى القيم التى فُقِدت أثناء العصر العلمى، الذى حاول السيطرة والتحكم فى الكون كله. لقد خلق التنوير إلهاً متناسقا بدرجة مخيفة، كالنمر، بعيدا عن العالم فى «الأعماق والسماوات القصية». ينبغى أن يقوم إله نيوتن بعملية تفريغ للذات، ويعود إلى الأرض، ويموت موتا رمزيا فى شخص المسيح، ويتوحد مع البشرية.

فى عام ١٨١٢، فُصِل الشاعر الشاب بيرس بيس شيلى (١٧٩٢– ١٨٢٢) من جامعة أكسفورد بعد كتابته كتيباً إلحاديا بعنوان «ضرورة الإلحاد» الذى رأى فيه ببساطة أن الله ليس تبعة ضرورية للعالم المادى. لم يُرِد شيلى أن يتخلص من الله تماما. فمثل معاصره الأكبر سِنًّا ويليام ويردسورث (١٧٧٠– ١٨٥٠)، كان لديه حس قوى بـ «روح»، «قوة لا مرئية» لا تنفصل عن الطبيعة ومتعضونة فى كل أشكالها. وعلى النقيض من مفكرى وكتاب عصر التنوير، لم يكن الرومانتيكيون معادين لما هو غامض خفى ولا يمكن تعريفه. اعتبروا أن الطبيعة ليست موضوعا يخضع للاختبار، والاستغلال، والسيطرة، بل يجب مقاربتها بتبجيل كمصدر للكشف والوحى. وبدلا من النظر إلى العالم المادى بصفته خاملا، فقد رأوه متشبعا بقوة روحية بإمكانها تثقيفنا، وإرشادنا.

منذ طفولته، كان ويردسورث على وعى بـ «روح» فى الطبيعة. تحاشى أن يسميها «الله» لأنها كانت مختلفة تماما عن إله العلماء، واللاهوتيين الطبيعيين؛ بل قال عنها:

حضور يقلق كيانى

بفرح الأفكار السامية

حسٌّ، جليل مهاب

بشىء ينساب إلى عمق الأعماق

مسكنه ضوء الشموس الغاربة

والمحيط المستدير، والهواء الحى

والسماء الزرقاء، فؤاد الإنسان:

حركة وروح، تؤجج كل شىء يفكر

تتدفق فى ثنايا الأشياء جميعها.

ولما كان دائما يهتم بدقة التعبير، أسمى ويردسورث، متعمدا، ذلك الحضور «شيئا» وهو لفظ يُستخدم كثيرا بديلا للتعريف الدقيق المحدد. رفض أن يطلق عليه اسما، لأنه لا يتفق مع أى مصنف مألوف. لم يكن يماثل إله العلماء العقيم الذى ارتحل عن الطبيعة، لكنه يذكرنا بقوة الكون الحلولية التى كان القدماء قد خبروها داخل أنفسهم، فى الحيوانات، فى النباتات فى الصخور والأشجار.

أحيا شعراء الحركة الرومانتيكية الروحانية التى كانت قد حُجبت فى العصر العلمى. وبمقاربتهم الطبيعة بأسلوب مختلف، استعادوا حسا بالأسرار الروحية المبهمة. كان ويردسورث يَحذَر «العقل المتطفل» الذى «يقتُل كى يُشرّح»، ويُقطّع الحقيقة أوصالا بتحليلاته الصارمة. وعلى نقيض العلماء والعقلانيين، رأى أن الشاعر لا يسعى للسيطرة على الطبيعة، بل لاكتشاف

حالة «انفتاح مستسلم حكيم» و«قلبه يرقب ويتلقى». حينذاك، يصبح بإمكانه أن يسمع الدروس التى يتلقاها صمتاً والتى طبعتها عليه جداول وأيكات وجبال «إقليم البحيرات» فى طفولته الأولى. شعر كل من شيلى وويردسورث مع بلوغهما سن النضج بالاغتراب عن هذا الحضور الحى، بأن التعليم والتجربة قد أفقداهما القدرة على الإنصات. لكن ويردسورث استعاد، من خلال الرعاية المتواصلة لذلك «الانفتاح السلبى الحكيم»، بصيرة لم تكن مختلفة عن تلك التى يكتسبها ممارسو اليوجا والمتصوفون. كانت:

لحظة روحية مباركة

نتخفف فيها من عبء الغموض

من ثقل هذا العالم المرهق غير المفهوم

لحظة روحية مباركة

ترشدنا فيها أحاسيس حب رقيقة

حتى توشك أنفاس هذا الهيكل الجسدى

بل وحركة دمائنا البشرية أن تتوقف

وتغدو روحا حية:

ثم بعين هدّأتها قوة التناغم

ووقع الفرح العميق

نستبصر حياة الأشياء

ومثل بعض مفكرى وعلماء عصر التنوير، كان ويردسورث منبهراً بأنشطة العقل البشرى؛ أدرك أن العقل يؤثر عميقا فى إدراكنا للعالم الخارجى لكنه

كان على قناعة أن تلك العملية مزدوجة. فالعالم الخارجي يُشكِّل في صمت جوهر عملياتنا الذهنية، كما أن النفس البشرية متلقية ومبدعة في آن «تعمل لكن بتناغم وثيق مع الأشياء التي تبصرها».

استخدم جون كيتس (١٧٩٥- ١٨٢١) معاصر ويردسورث الأصغر سنا، مصطلح «القدرة السلبية» ليصف عملية «الخطو خارج الذات Ekstasis» الضرورية للبصيرة الشعرية. يحدث هذا «حينما يكون الشخص قادرا على أن يخبر (حالات من) عدم اليقين، أسرارا، شكوكا بدون اللجوء إلى إثارة البحث عن الحقائق والاستعانة بالعقل»، وبدلا من أن يسعى إلى التحكم في العالم من خلال التفكير المنطقي العدواني، كان كيتس مستعدا لخوض ظلمة ليل اللامعرفة: «بيد أنني صغير أكتب بغير هدى - أجهد وراء جزئيات نورٍ وسط الظلمة الهائلة - دونما معرفة بأثر أي توكيد جازم، أيِّ رأي معين». زعم، فرحاً، أنه ليس لديه آراء بإطلاقه، لأنه ليس لديه ذات. اعتقد أن الشاعر هو «الأقل شاعرية في الوجود؛ لأنه ليس لديه هوية». لا يملك الشاعر الحقُ الوقت «للمتسامي الأنوي» الذي يفرض نفسه على القارئ:

«نبغض الشعر ذا القصد الملموس (للتأثير) فينا - والذي إذا لم نوافقه، يبدو متأففا. لابد للشعر أن يكون جليلا، ولا يفرض نفسه، شيئا يخترق الروح، ولا يُجفلها أو يذهلها بذاته بل بموضوعه - كم هي جميلة تلك الزهور المتباعدة المنعزلة! كم ستفقد جمالها إن هي احتشدت في الطريق وهي تتصايح: فلتُعجب بي إنني البنفسج! أغدق عليّ حبك، إنني زهور الربيع».

وعلى حين كان مفكرو عصر التنوير يحترزون من الخيال، رآه كيتس ملكة مقدسة تأتي إلى العالم بالحقائق الجديدة: «لست متيقنا من شيء سوى من قداسة المشاعر القلبية وصدق الخيال - ما يتلقفه الخيال بصفته جمالا لابد وأن

يكون حقيقة - سواء كان موجودا أم لا- لأننى لدىّ نفس الفكرة عن جميع عواطفنا القوية، كما فى الحب فهى كلها (حقيقة) فى جمالها المتسامى الخلاق».

أيضا، تراجع اللاهوتى الألمانى فريدريتش شلايماخر (١٧٦٨- ١٨٣٤) والذى كان قد تأثر بعمق بالحركة الرومانتيكية، عن الدين النيوتونى. بحث هو أيضا عن حضور فى «عقل الإنسان». رأى فى كتابه «عن الدين: خطابات للمثقفين الذين يزدرونه» (١٧٩٩)، أنه لا ينبغى أن يبدأ المسعى الدينى بتحليلٍ لنظام الكون، بل يبدأ فى أعماق النفس. مثل هذا الدين لن يكون قوة اغتراب، بل سيرتبط بـ «الأسمى والأعز» على نفوسنا. اعتقد أن الله موجود فى «أعماق الطبيعة البشرية» فى «أسس أفعالها وأفكارها»، حيث يكمن جوهر الدين فى الشعور بـ «التبعية المطلقة»؛ ذاك الشعور ذو الأهمية الكبرى للتجربة الإنسانية. وهذا لا يعنى العبودية الذليلة لإله قصىٍّ مُجسَّد خارج الذات والطبيعة. ثمة أوجه حاسمة من حياتنا - نسبنا وأبوانا، إرثنا الجينى، موعد وفاتنا وكيفيتها - تظل خارج نطاق تحكمنا تماما، فنحن نخبر الحياة بصفتها «مُعطىً» شيئاً تلقيناه. هذا «الاعتماد» ليس مجرد شىء غرسه الله فينا؛ بل إنه الإله، مصدر كينونتنا الذى منه أتينا. بيد أن هذا اللاهوت كان يقلل من شأن الله بقدر: فقد أضحى الإنسان، فى رأى شلايماخر مركز المسعى الدينى وأصله وغايته. وبدلا من أن يكون الله التفسير النهائى للكون، أصبح تبعةً ضرورية للطبيعة البشرية، وسيلة تمكننا من فهم أنفسنا.

ظل الفيلسوف الألمانى چورچ ولهلم فدريتش هيجل (١٧٧٠- ١٨٣١) ملتزما تماما بمثال موضوعية المعرفة الذى قالت به حركة (التنوير)، لكنه كان لابد وأن يوافق الشاعر بليك على أنه ينبغى على الإله المجسد الموجود خارج الطبيعة أن يتخلى عن عزلته ويستغرق فى الحقيقة الدنيوية. اعتقد أن للبشر أفكاراً وتطلعات تفوق قدراتهم العقلانية، وتقليدياً، كانوا يعبرون عنها فى

أساطير الدين؛ بيد أنه أصبح الآن بالإمكان إعادة صياغتها فلسفياً. رأى هيجل فى كتابه «فينومولوچيا (علم ظواهر) العقل» (١٨٠٧)، أن الحقيقة النهائية الجوهرية التى أسماها «الروح أو العقل Geist» ليست مجرد كائن، بل «الكينونة الباطنية للعالم، التى هى كائنة (is) جوهريا». من ثم فهى الكينونة ذاتها. طور هيجل رؤية فلسفية تذكرنا بالقبالاة اليهودية. رأى أنه من الخطأ تخيل الله خارج عالمنا، أى كائنا مضافاً إلى تجربتنا. فالروح متشابكة بأسلوب لافكاك منه مع العالمين الطبيعى والبشرى ولا تستطيع التحقق سوى فى الواقع الدنيوى المحدود. اعتقد هيجل أن هذا هو المعنى الحقيقى لعقيدة التجسد المسيحية. وعليه، فإنه فقط حينما ينكر البشر فكرة الله الخارجى المنفصل التى تعمل على الاغتراب، يصبح بإمكانهم اكتشاف الألوهية متعضونة فى طبيعتهم ذاتها، لأن «الروح الشمولية لا تتحقق باكتمالٍ سوى فى الذهن الإنسانى».

جاءت رؤية هيجل تعبيرا عن روح الحداثة المتفائلة المندفعة أماما. لا يمكن أن يكون ثمة عودة إلى الماضى، إذ إن البشر مرتبطون بعملية جدلية يطرحون فيها جانبا ودونما توقف، الأفكار التى كانت ذات مرة مقدسة لا تقبل التفنيد. تأتى كل حالة من الكينونة بنقيضها؛ وتتصادم تلك النقائض، ثم تندمج، وتخلق تركيبة جديدة، خلاصة جديدة. ثم تبدأ العملية بأكملها من جديد. وهكذا، يمضى العالم دوما فى إعادة خلق نفسه. ليست بُنى المعرفة ثابتة، لكنها مجرد مراحل لحقيقة نهائية لا تفتأ تتكشف. عبرت جدلية هيجل عن الهاجس القهرى الحديث للتخلص من أحدث الأرثوذكسيات. اعتقد أن الدين هو إحدى المراحل التى سيخلّفها البشر وراءهم فيما هم يتقدمون باتجاه تحققهم النهائى. وفى خطوة نراها نحن الآن منذرة، ماثل هيجل بين الدين الذى يعمل على الاغتراب والذى علينا رفضه واليهودية. ألقى على اليهود

باللوم، وهو غير مدرك لأوجه الشبه بين فلسفته وبين القبالاة، لأنهم حولوا «الروح» الحلولية إلى إله خارجي مستبد عمل على اغتراب الرجال والنساء عن طبيعتهم. وبأسلوب ما، سيصبح هذا معتادا في النقد الحديث للعقيدة، حيث إنه طرح صورة مشوهة لـ «الدين» كنقيض لأفكاره، وانتقى واحدا من التوجهات لإرث معقد ورأى أنه يمثل كل الموروث.

وعلى الرغم من تأكيد هيجل بصرامة على حركة الحقيقة التقدمية، فإنه، ومثل شعراء الرومانتيكية، أعاد قولبة الأفكار القديمة في شكل جديد. وفيما مضى التحديث في طريقه قدما، كان الغربيون على وشك ولوج عالم آسر ومقلق في آن. ولكي يسايروا هذه المتغيرات، أُجبِروا على تغيير دينهم، أساليب تعليمهم، والبنى الاجتماعية والسياسية لمجتمعهم. وفيما كانوا يناضلون للتكيف مع عالمهم الذي تغير جذريا، تخلوا عن توجهات بدت، على الرغم من ذلك، متعضونة في بنية البشرية. وحينما كانت حركة التنوير الأصلية تقترب من نهايتها، كانت بعض تلك التوجهات قد بدأت في الظهور على السطح مرة أخرى. كان الشعراء والفلاسفة ورجال الدين يحثون الناس على استعادة التوجه الأكثر انفتاحا على الحياة. كانوا يسائلون ثنائية التمييز بين الطبيعي وما فوق الطبيعي ويجابهون الرب النيوتوني بصورة لروح حلولية. أحيوا فكرة الأسرار والغموض. كان كوندورسيه، هيوم، وكانط قد اقترحوا أن حالة اللامعرفة جزء حتمي من استجابتنا للعالم. بيد أن «عصر العقل» لم يكن قد انتهى، ولم يكن قد أسهم في حركة التنوير الحقة سوى مجموعة نخبوية من المثقفين. لكن، كانت ثمة حركة دينية على وشك أن تأتي بالفرضيات الأساسية للتنوير إلى التيار الرئيسي بدرجة أصبحت معها جزءا جوهرياً من وجهة النظر الغربية.